الاقتصاد
بين فقهِ الخُبراءِ العارِفينَ وتفيقُهِ الأدعياءِ المُتعالِمينَ

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

الحلقة (١)

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، والحمدُ للهِ تعالى اللطيفِ الخَبيرِ، وصلّى اللهُ وسلَّمَ على سيِّدنا مُحمَّدٍ؛ مَن علَّمَ الأُمَّة، وأرشدَ الناسَ إلى حُسْنِ إدارةِ أمورِ حياتِهم؛ ابتغاءَ رِضوانِ مولاهُم، وبُلوغِهم السعادةَ في دُنياهم والفلاحِ في أُخْراهُم، وبعدُ :

فـ (إنّ الحُكْمَ على الشيءِ فرعٌ عن تصوُّرِه)، ولا بُدَّ للباحثِ الاقتصاديّ من فِقه (المَعرفةِ الشرعيةِ والمعرفةِ الاقتصاديةِ)، ومعرفةِ (المُفرَدةِ القُرآنيةِ والنبويةِ تأصيلاً، والمُفرَدةِ اللغويةِ والاصطلاحيةِ تفصيلاً)، وبيانِ معنى (الفقه، الخِبرة، المَعرفة)، و(التفيقه، الدعوى، التعالُم)؛فـ:

* "الفقهُ: (العلمُ بالأحكامِ الشرعية المكتسَب من أدلَّتِها التفصيليّة)، أو (الجمعُ بين العلمِ والعملِ) أو (العلمُ بالمسائلِ الشرعيةِ العمليةِ).

والفقيهُ:(العالِمُ الفَطِنُ، مَن شغلَ أوقاتَه بالمُطالَعة، والتعليمِ، والفتوى، وإنْ قصَّرَ عن الاجتهادِ، المجتهِدُ، مَن يحفظُ الفروعَ الفقهية، ويصيرُ له إدراكٌ في الأحكامِ المُتعلِّقةِ بنفسه وغَيره، العالِمُ بالأحكامِ الشرعيةِ العمليةِ كـ" الحِلِّ والحُرمةِ، والصِّحَّة، والفساد").

* (الخِبرة: المعرفةُ ببواطنِ الأمورِ، والخَبير: من أسماءِ اللهِ عزَّ وجلّ؛ العالِم بما كان، وما يكون) (القاموس الفقهي : سعدي أبو جيب).

* (المعرفةُ: إدراكُ حقائقِ الأشياءِ وفَهْمُ أسرارِها وحِكَمِها الظاهرة والباطنة"أمورِ اللهِ عزَّ وجلَّ من الحلالِ والحرامِ؛ وأكثرُه ما يَصحَبُه إلهامٌ ربَّانيٌّ وتوفيقٌ إلهيٌّ).

لقد أرشدَ القرآنُ الكريمُ والسُّنَّةُ الشريفةُ الإنسانَ العاقلَ إلى التأمُّلِ والتدبُّرِ في آياتِ "الكونِ والحياةِ والإنسان"، وبيَّنَ أنّ الراسخينَ في العلمِ هُم "أُولو البصائرِ، وذَوُو الألبابِ، وأصحابُ الثباتِ في الدِّينِ، والتمكُّنِ في الفقه والتأويلِ"؛ ومن ذلك الاقتصادُ الذي يُعتبَرُ عِمادَ الحياةِ العمليَّةِ اليوميةِ؛ لذا لا بُدَّ من بيانِ أنّ الاقتصادَ الإسلاميَّ يَستندُ إلى أُسُسٍ راسخةٍ، ويَعتمدُ على ركائزَ متينةٍ تثبتُ "أمامَ عقباتِ الحياة، وآلاعيبِ التآمُرِ العالَميِّ"؛ لاختلاقِ أزماتٍ تُزعزِعُ

اقتصادَ الأُممَ، وتشلُّ حركةَ الانتعاشِ الاقتصاديِّ بدافعِ (الحَسَدِ والحقدِ)، ولانتزاعِ مُقدَّراتِ الأممِ المَغلوبِ على أمْرِها، أو إحداثِ أزماتٍ في البلادِ المُستقرَّةِ لاستنزافِها؛ لتبقى في تيهِ الضياعِ والتشرُّدِ والفسادِ والإلحادِ. وهذا واقعٌ لا يُنكِرُه إلاّ مَن كان في قلبِه عَمَهٌ، وفي بَصرِه غِشاوةٌ، وفي عقلِه خَبَلٌ؛ أيّ: (أعمى القلبِ والرأسِ).

إنّ أعداءَ الأمَّةِ – كانوا وما زالوا – يكيدُونَ لهذا الدِّينِ العظيمِ (كيداً ومَكْراً وتآمُراً) ما إنّ الجبالَ الرَّواسي لتَزُولَ منهُ؛ ولكنَّ إرادةَ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانَه القويَّ يأبى إلاّ أن يُظْهِرَ مظاهرَ انتقامه من (الكائدينَ، والماكرينَ، والمتآمرين)، ومَن يقرأُ سُننَ اللهِ في خَلْقِه وقُدرَتِه في اجتثاثِ بُذورِ الفسادِ وثمارِ الإلحادِ وحصادِ الإفسادِ يرَ العَجَبَ العُجابَ، وأنَّ اللهَ ناصرٌ دينَه وشَريعتَه قال اللهُ تعالى: (واللهُ غالبٌ على أمْرِهِ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ).

وكمْ انقلبَ السِّحرُ على صاحبِه فأوقعَهُ في فَخِّه. وصَدَقَ رسولُ اللهِ مُحمَّدٌ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ: إنّ اللهَ لَيُعزُّ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجرِ.

فكَمْ وكَمْ كادُوا لهذا الاقتصادِ الإسلاميِّ؛ ليُثبِتُوا للعالَمِ أجمعَ أنّه لا اقتصادَ إلاّ في ظِلِّ إلحادٍ لا إسلامَ ولا إيمانَ ولا إحسانَ فيه، ولا تكافلَ ولا تعاونَ ولا تكاملَ فيه.

ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وصحبِه وسلَّمَ أمرَ بـ(إنشاءِ سُوقٍ حُرٍّ للمسلمينَ مُستقلٍّ) عن سُوقِ غَيرِهم من الأُممِ، وكما قيل: "الاستقلالُ يُريحُ البالَ ويُحسِّنُ الأحوالَ".

* كما قامَ خليفةُ رسولِ اللهِ الأوَّل أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ بخُطواتٍ (علميَّةٍ وعَمليّةٍ) تستندُ إلى (نُصوصٍ قرآنيةٍ وأحاديثَ نبويةٍ وإلهامٍ وتوفيقٍ ربَّانيٍّ) تُيسِّرُ للناسِ أمورَ حياتِهم، وتُثبِتُ لهم كيانَهم، وتحفظُ لهم كرامَتهم، وترفعُهم إلى مَصافِّ الأُممِ الراقيةِ حضارةً وإنسانيةً؛ بل علَّمَتِ العالَمَ أجمعَ معنى الأستاذيَّةِ في مجالاتِ الحياةِ كافَّةً؛ ومنها الاقتصاديةُ (طُهراً وعِفَّةً وسماحةً ونُبلاً)؛ وذلك عندما حاربَ المُرتدِّينَ واعتبرَها (قضيةً شرعيةً مصيريةً لا هَوادةَ فيها ولا مُهادنَة)؛ لأنّ مَن تهاونَ في فريضةِ الزكاةِ فقد أرادَ (إحداثَ شَرْخٍ في بُنيانِ الأمَّةِ العَقدي، وإيقاعَ خللٍ في كيانِها الاقتصاديّ الإسلاميّ)؛ ليعيشَ المسلمونَ في دوَّامةٍ وتيهٍ من العَوَزِ والفاقةِ والجهلِ، ولله دَرُّ مَن قال: "هتفَ الفقرُ بالجهلِ فأجابهُ وحقَّقَ مُراده فساداً وخراباً"، وكيف تُبنَى حضارةُ أمَّةٍ فقدَتْ عَصَبَ حياتِها فأصبحتْ جَسَداً متآكلاً لا رُوحَ فيها.

قال الشاعرُ: بالعلمِ والمالِ يَبني الناسُ مُلكَهُمُ لم يُبنْ مُلْكٌ على جَهلٍ وإقلالِ

* وهذا عُمَرُ الفاروقُ رضيَ اللهُ عنهُ يستبعدُ رَجُلاً لا يعرفُ الشَّرَّ؛ وذلك لأنّ الإنسانَ الناقدَ البصيرَ، والمُحنَّكَ المجرِّبَ الخبيرَ يُدركُ ما لا يُدركُه الغَمْرُ – الغافلُ – ويقولُ لمُخاطبه: "ويْحَكَ ذلك أدنى أنْ يقعَ فيه"

قال الشاعرُ: عَرفتُ الشَّرَّ لا للشَّرِّ لكنْ لتوقِّيه ومَن لا يَعرفُ الخيرَ من الشَّرِّ يقعْ فيه

وخَطبَ عمرُ ولاتَه فقالَ: "اعلَمُوا أنّه لا حِلْمَ أحبَّ إلى اللهِ تعالى وأعمَّ من حِلْمِ إمامٍ ورِفْقِه، وأنّه ليسَ أبغضَ إلى اللهِ ولا أعمَّ من جهلِ إمامٍ وخَرَقِه، واعلَمُوا أنّه مَن يأخذُ بالعافيةِ فيمَن ظهرانيه يُرزَقِ العافيةَ فمَن هو دُونَه". كما أنّه

قال: "مَن استعملَ فاجراً؛ وهو يعلمُ أنَّه فاجرٌ فهوَ مثلُه" . وأغنَى العُمّالِ عن أموالِ الناسِ، وفرَّغَهُم للعملِ ولمصلحةِ الأمّة، وأنزلَ الناسَ منازلَهُم؛ فقد كتبَ إلى أبي موسَى الأشعريِّ:" بلغَني أنّكَ تأذنُ للناسِ جمَّاً غفيراً؛ فإذا جاءكَ كِتابي هذا فأذنْ لأهلِ الشَّرَفِ وأهلِ القرآنِ والتقوى والدِّين، فإذا أخذُوا مجالسَهُم فأذنْ للعامَّة؛ وكتبَ إليه أيضاً: لم يزلْ وجوهٌ يرفُعونَ حوائجَ الناسِ؛ فأكْرِمُوا وُجوهَ الناسِ؛ فإنّه بحَسْبِ المسلمِ الضعيفِ أن ينتصِفَ في الحُكْمِ والقِسمَة" نصيحة الملوك (الماوردي ص ٢٠٧).

وكان عمرُ يُشجِّعُ النشاطَ التجاريَّ، ويحثُّ عليه؛ فاهتمَّ بالنشاطِ التعليميِّ، ويفرضُ للمعلِّمينَ رِزْقاً ومِمَّنْ ترتبطُ به مصلحةٌ عامَّةٌ. (مصنف ابن أبي شيبة: ٤ / ٣٤١).

ويقول عمرُ بنُ الخطَّاب رضيَ اللهُ عنه مُعتبراً أنّ الإنتاجَ ضَرْبٌ من ضُروبِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى: "كُتِبَتْ عليكُمْ ثلاثةُ أسفارٍ: الحجُّ، والعُمْرَة، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، والرَّجُلُ يسعى بمالِه في وَجْهٍ من هذه الوُجوهِ؛ أبتغي بمالي من فضْلِ اللهِ أحبُّ إليَّ من أن أموتَ على فِراشي ولو قلتُ:إنّها شهادةٌ لَرَأيتُ أنّها شهادةٌ" .

(مُصنَّفُ ابنِ أبي شَيبة: ٤ / ٤٦٧ – ٢ / ٣١٣–٣١٤) وقال مُحقِّقُه: رواه ابنُ أبي شَيبة ورجالُه ثِقاتٌ وإسنادُه صحيحٌ.

وقال أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضيَ اللهُ عنهُ لعُتْبَةَ بنِ فَرقد حين جاءَ إلى أذربيجانَ وبَعثَ له من الحلوى الطيِّبة (الخبيص): "إنّه ليسَ من كَدِّكَ ولا منْ كَدِّ أبيكَ؛ فأشبِعِ المُسلمينَ في رِحالِهم ممّا تشبَعُ في رِحالكَ، وإيَّاكَ والتنعُّمَ وزِيَّ أهلِ الشِّركِ ولَبوسِ الحَريرِ؛ فإنّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم نهَى عن لَبوسِ الحَرير" (الولاية على البلدان: ١ / ١٣٣).

ومن المعلومِ أنّ التبعيةَ الاقتصاديةَ لِغَيرِ المسلمينَ لها مَحاذيرُها وخُطورتُها (الفكرية والعَقَدية والسُّلوكية) التي لا تُنكَرُ، وتُعتبَرُ أشدَّ خَطراً من المَوالي وأضرّ؛ فقد قال عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ: "مَن تجَّارُكُمْ"؟ قالوا: مَوالينا وعَبيدُنا، قال: "يُوشكُ أنْ تحتاجُوا إلى ما في أيديهِم؛ فيَمنَعُوكُم" (مصنف ابن أبي شيبة: ٢ / ٣١٤).

ولَمّا غَرَسَ زيدُ بنُ مسلمةَ في أرضِه قال له عُمَرُ رضيَ اللهُ عنه: "أصبتَ؛ استغنِ عن الناسِ؛ يَكُنْ أصونَ لِدينِكَ، وأكرمُ لكَ عليهِم" (إحياء علوم الدين: ٢ / ٧١).وهذا من (التشجيعِ الزراعيِّ الحضاريِّ) يُنمِّي مواردَ الأراضي، ويُجنِّبُها البوارَ والتصحُّرَ، ويزيدُ خيراتِها وطيِّباتِها.

* وذو النورين عثمانُ بنُ عفّانَ رضيَ اللهُ عنه اشترى بئرَ رُومةَ من يهوديٍّ كان يتحكَّمُ في مائِها، وبذلَ الغالي والنفيسَ؛ ليحفظَ للمُسلمينَ كرامتهُم، ويَصونَ أعراضَهم أمامَ الناسِ.

* وقد كان عليٌّ بنُ أبي طالبٍ المُستشارَ الأوَّلَ لِعُمَرَ بنِ الخطَّابِ في قضايا الحياةِ يبذلُ (خُلاصةَ فِكْرِه، وخِبْرَةَ عملِه، وحصافةَ رأيِه، ونزاهةَ حُكمِه، وبلاغةَ حِكَمِه، وروائعَ دُرَرِه)، والناصحَ الغَيورَ عليه، وكان أميرُ المؤمنينَ عُمَرُ

يُبادِلُه (المحبَّة والمودَّة والثقة والتعاونَ) المتبادلَ لخدمةِ الأمَّة؛ فيعودَ ذلك ب(النفعِ والنهضةِ والسعادةِ) ببركةِ إخلاصِ وابتغاءِ أصحابِها رضوانَ اللهِ تعالى.

ومِن أقوالِه المشهورةِ التي تدلُّ على (فقهٍ عميقٍ ودقيقٍ) لشؤونِ الحياة: "نِعمَ المُؤازرَةُ المشاورةُ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ" (نهاية الأرَب: ٦/ ٦٩).

وقد أوصى أميرُ المؤمنينَ عليٌّ مالكَ بنَ الأشترِ حين بَعثهُ إلى مِصرَ في الشورى قولَه: "لا تُدخِلَنَّ في مَشورَتِكَ بَخيلاً؛ فيعدِلَ بكَ عن الفضلِ ويَعِدُك الفقرَ، ولا جَباناً فيُضْعِفكَ عن الأمورِ، ولا حَريصاً فيُزيِّنَ لك الشَّرَّ بالجَورِ؛ فإنّ (البُخل والجُبنْ والحرصَ) غرائزُ شتّى يجمعُها سوءُ الظَّنِّ باللهِ".

وقال أيضاً: "بئسَ الزادُ إلى المعادِ العُدوانُ على العِبادِ". وقال: "ليسَ مِن العدلِ القضاءَ على الثقةِ بالظَّنِّ"

ولله درُّه مِن أميرِ أمَّةٍ يقول:

للناسِ حِرصٌ على الدُّنيا وتدبيرُ	وفي مُرادِ الهَوى عقلٌ وتشميرُ
وإنْ أتَوا طاعةَ اللهِ ربِّهِم	فالعقلُ منهُم على الطاعاتِ مأسورُ
لأجْلِ هذا وذاكَ الحِرصِ قد مزجَتْ	صفاءَ عَيشاتِها همٌّ وتكديرُ
لمْ يُرزَقُوها بعَقلٍ عندما قُسِمَتْ	لكنَّهُم رُزِقُوها بالمقاديرِ
كمْ مِن أديبٍ لبيبٍ لا تُساعِدُه	ومائقٍ نالَ دُنياهُ بتقصيرِ
لو كان عن قوَّةٍ أو عن مُغالَبةٍ	طار البُزاةُ بأرزاقِ العصافيرِ (البداية والنهاية ١١/ ٨)

وقد كان أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يدخلُ السُّوقَ وبيده الدِّرَّةَ وعليه عَباءةٌ ويقولُ: "يا أيُّها التُّجَّارُ؛ خُذوا الحقَّ، وأعطُوا الحقَّ تَسلَمُوا، لا تَرُدُّوا قليلَ الرِّبحِ فَتُحرَمُوا كثيرَه". "مَن اتجَرَ قبلَ أن يتّفقهَ في الدِّينِ؛ فقَد ارتطَمَ بالرِّبا، ثمَّ ارتطَمَ، ثمّ ارتطمَ" – وقع – (بُستان العارفين ص ٣٥٠).

وكتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ حينما بعثَ الأشترَ النخعيَّ على مِصرَ:

"وليكُنْ نظرُكَ في عِمارةِ الأرضِ أبلغَ مِن نَظَرِكَ في استجلابِ الخَراجِ؛ لأنّ ذلك يُدرَكُ بالعمارةِ، ومَن طلبَ الخراجَ مِن غيرِ عمارةٍ أضرّ بالبلادِ وأهلكَ العبادَ ولم يَستقِمْ أمرُه إلاّ قليلاً؛ فإنْ شَكَوا ثِقلاً، أو عِلَّةً أو انقطاعَ شُربٍ، أو إحالةَ أرضٍ اغتمَرَها غَرَقٌ، أو أجحَفَ بها عطشٌ خففتُ بما ترجُو أن يصلُحَ به أمرهم؛ فإنّ العمرانَ محتملٌ ما حملتُه، وإنّما خرابُ الأرضِ من إعوازِ أهلِها، وإنّما إعوازُها أهلَها لإشرافِ أنفُسِ الوُلاةِ على الجمعِ وسُوءِ ظَنِّهِم بالبقاءِ، وقلَّةِ انتفاعِهم بالعِبَرِ" (الولاية على البلدان: ٢/ ١٥٣ –١٦٣) فلا يجوزُ تجميدُ الأموالِ؛ بل ينبغي صرفُها في مصالحِ المسلمين، ويُعتبَرُ عدمُ صَرفِها ظُلماً وجَوراً.

* وسيِّدُنا الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ الذي جنَّبَ اللهُ تعالى المسلمينَ – بنظرته العميقةِ ونفْسه النزيهة، ورؤيته البعيدة لمآلاتِ الأمورِ– مقتلةً عظيمةً كادتْ أن تقعَ– فيما لو استبَّدَ برأيهِ، وتعصَّبَ لحُكْمِه–؛ فعادَ (خيرُها ونفعُها وبركتُها) على الأمّة، وعاشتْ ب(وُدٍّ وسلامٍ وتعاونٍ ووئامٍ) .

هذا قبسٌ اقتصاديٌّ حضاريٌّ من نُورِ مشكاةِ مَدرَسةِ سيِّدنا محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وآله وصَحبه وسلَّمْ التي خَرَّجَتْ الرَّعيلَ الأوّلَ من أساتِذة الدُّنيا وعَباقرةِ الدِّين؛ من بَقيَ أثرُهُم، ورَفَعَ اللهُ ذكْرَهُم في الدُّنيا قبلَ الآخِرة؛ ولِمَ لا وقد ربَّى اللهُ مُحمَّداً ليُرَبِّي به العربَ، وربَّى العَربَ ليُربِّي بهم العالَم. فهلْ من رَجُلٍ رشيدٍ؟!

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: "ونُريدُ أنْ نَمُنَّ على الذِّينَ اسْتُضْعِفُوا في الأرضِ ونَجْعَلَهُمْ أئمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ" . .

.